المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

رقم النشر: ٣٨٠٧١٤١١٧

جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز
Prince Sattam Bin Abdulaziz University

مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية

بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بنشر العلوم والدراسات في مجال العلوم الشرعية واللغة العربية، وتصدر مرتين في السنة مؤقتا

النشر الإلكتروني

دلالة صيغة الفعل الماضي وأثرها في التفسير

د. أحمد بن سليمان الخضير

تصدر عن جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

دلالة صيغة الفعل الماضي في القرآن الكريم
وأثرها في التفسير

إعداد

د. أحمد بن سليمان بن صالح الخضير

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

بجامعة القصيم

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .. بأطروحته : منهج وأقوال أبي إسحاق الحربي في التفسير جمعا ودراسة
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية .أصول الدين.. جامعة .الإمام محمد بن سعود الإسلامية .. بأطروحته : علوم القرآن عند المرداوي جمعا ودراسة

الملخص

عنوان البحث : دلالة صيغة الفعل الماضي في القرآن الكريم وأثرها في التفسير .

أهداف البحث :

١- التعريف بالفعل الماضي في القرآن الكريم .

٢- بيان الأثر التفسيري لتنوع زمان الفعل الماضي .

منهج البحث : المنهج الاستقرائي التحليلي .

أهم النتائج التي توصل إليها الباحث : أن الفعل الماضي يفيد المستقبل إذا عطف على ما علم استقباله أو وقع منفياً ب "لا " أو " إن " بعد القسم .

أهم التوصيات التي يوصي بها الباحث :ضرورة دراسة صيغ الأفعال في القرآن الكريم وبيان أثرها التفسيري.

الكلمات المفتاحية : دلالة ، صيغة ،ا لفعل ، الماضي ، التفسير .

Study and Collection of View Points of Almardaawi In Quranic Science

- **The Use of Past Tense Form in The Holy Koran and its Semantic Implication in its**
- **Interpretation**

- Objectives:

1. Definition of the past tense in the Holy Koran.
2. Showing the interpretation effect of the diversity of the past tense.

- Research Methodology: the researcher used the induction method in tracing the past tense in the Holy Koran in certified resources, and then he divided the research into an introduction, a preface, five sections, conclusion, and index.
- The most significant finding of the research: the past tense is useful for the recipient if it is coordinated with what is received, or if it is negated with 'لا', not, or, if, after an oath.
- Significant recommendation: the imperative to study the past tense forms in the Holy Koran and showing the interpretation effect.

- **Denote the past tense formule keywords : signiflcance , formulation ,verb , past interpretation**

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل بلسان أقوامهم، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال أيضاً: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

فالقرآن نزل بلغة العرب اللغة التي كانت لسان من نزل فيهم القرآن، ولهذا كان العلم بلغة العرب أسّاً أصيلاً لا يمكن تجاهله لمن رام تفسير كتاب الله عز وجل، وقد روى البيهقي في شعب الإيمان عن مالك قوله: "لا أوتي برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلّا جعلته نكالاً"(١).

فلما كان القرآن عربياً كانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وسلماً يرتقى بها إلى فهم القرآن الكريم، وبدون معرفة اللغة العربية يقع المفسر بالغلط وسوء الفهم، وكان من ضمن أساليب اللغة العربية العدول بالماضي عن زمانه إلى أزمنة متعددة، وكان في القرآن الكريم استشهادات كثيرة على ذلك، فرأيت أن أبحث هذا الموضوع تحت اسم: "دلالة صيغة الفعل الماضي في القرآن الكريم وأثرها في التفسير".

سائلاً المولى عز وجل الإعانة والتوفيق.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في ترك التفسير بالظن (٥٤٣/٣) ح(٢٠٩٠) .

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١ – أن علم اللغة من العلوم المهمة لفهم القرآن الكريم.

٢ – أن في البحث إظهاراً لدلالة الفعل الماضي وأزمنته في القرآن الكريم.

٣ – أن الموضوع لم يدرس من قبل.

أهداف البحث:

١ – التعريف بالفعل الماضي وأزمنته في القرآن الكريم.

٢ – بيان الأثر التفسيري لتنوع أزمنة الفعل الماضي في القرآن الكريم.

٣ – الوقوف على أقوال المفسرين واختلافهم في دلالات الفعل الماضي.

مشكلة البحث:

البحث يجيب عن الأسئلة التالية:

١ – متى يدل الفعل الماضي على الزمن المستقبل؟.

٢ – متى يدل الفعل الماضي على الزمن الحاضر؟.

٣ – متى يدل الفعل الماضي على الدوام والاستمرار؟.

٤ – ما الأثر التفسيري من تنوع صيغة الفعل الماضي في القرآن الكريم؟.

حدود البحث:

دلالة الفعل الماضي في القرآن الكريم وأزمنته بالمثال – دون الاستيعاب لذلك – وبيان أثر ذلك في التفسير.

الدراسات السابقة :

بعد البحث عن الدراسات السابقة في هذا الموضوع، والتواصل مع المراكز المتخصصة في الدراسات الإسلامية، والبحث في محركات البحث المتوفرة عثرت على الدراسات الآتية:

١ – الفعل في القرآن الكريم تعديته ولزومه، للدكتور إبراهيم الشمسان.

٢ – الفعل في نحو ابن هشام، للدكتور عصام نور الدين.

٣ – أسرار النحو في ضوء أساليب القرآن، للدكتور مُحَمَّد يسري زعير.

٤ – الأفعال في القرآن الكريم، للدكتور عبدالحميد مصطفى السيد.

٥ – معجم الأفعال التي حذف مفعولها غير الصريح في القرآن الكريم، للدكتور عبدالفتاح الحموز.

والفرق بين بحثي وبين الدراسات السابقة ما يلي:

أ – الدراسات السابقة دراسات لغوية بحتة، حيث تتعرض للفعل الماضي وأزمنته من وجهة نظر لغوية.

ب – أن هذه الدراسات أشبه بالمعجم للفعل في القرآن الكريم عموماً.

والإضافة الجديدة التي سيضيفها هذا البحث:

هو الاقتصار على الفعل الماضي وأزمنته في القرآن الكريم، وبيان أثره التفسيري، وهذا لم يُسْبَق إليه فيما بحثت من مصادر.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وهي على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وأهداف البحث، ومشكلة البحث، وحدود البحث، والدراسات السابقة.

التمهيد: وفيه التعريف بالفعل الماضي.

المبحث الأول: دلالة الفعل الماضي على الزمن الماضي وأثره في التفسير.

المبحث الثاني: دلالة الفعل الماضي على الزمن المستقبل وأثره في التفسير، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: إذا وقع الفعل الماضي بعد أداة الشرط (إن) وما يتضمن معناها.

المطلب الثاني: إذا كان الفعل الماضي وقع بالإخبار عن الأمور المستقبلية مع قصد القطع بوقوعها.

المطلب الثالث: إذا وقع الفعل الماضي بعد القسم منفياً بـ"لا" أو "إن".

المطلب الرابع: إذا كان القصد من الإتيان بالفعل الماضي في سياق الكلام للوعد.

المطلب الخامس: دخول "ما" النائبة عن الظرف المضاف على الفعل الماضي.

المبحث الثالث: دلالة الفعل الماضي على المضي والاستقبال احتمالاً، وأثره في التفسير، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: إذا وقع الفعل الماضي بعد "كلما".

المطلب الثاني: إذا وقع الفعل الماضي بعد "حيث".

المطلب الثالث: إذا وقع الفعل الماضي بعد أحد حروف التحضيض.

المطلب الرابع: إذا وقع الفعل الماضي بعد همزة التسوية.

المبحث الرابع: دلالة الفعل الماضي على الزمن الحاضر وأثره في التفسير، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ترتيب فعلين وقعا في الماضي بحيث وجد الأول في اللحظة التي وجد فيها الثاني.

المطلب الثاني: إذا قيد الفعل الماضي بكلمة "الآن".

المطلب الثالث: إذا قيد الفعل الماضي بكلمة "آنفاً".

المبحث الخامس: دلالة الفعل الماضي على الاستمرار والدوام، وأثره في التفسير.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

الفهارس.

منهج البحث:

سلكت في بحثي المنهج الاستقرائي التحليلي مستعيناً بالمنهج المقارن إذا لزم الأمر.

إجراءات البحث:

تتمثل إجراءات البحث بالتالي:

أولاً: مهدت للبحث بدراسة عن الفعل الماضي.

ثانياً: عرضت في المبحث الأول: دلالة الفعل الماضي على الزمن الماضي وأثره في التفسير.

ثالثاً: عرضت في المبحث الثاني: دلالة الفعل الماضي على الزمن المستقبل، وأثره في التفسير.

رابعاً: عرضت في المبحث الثالث: دلالة الفعل الماضي على الزمن الماضي والمستقبل احتمالاً، وأثر ذلك في التفسير.

خامساً: عرضت في المبحث الرابع: دلالة الفعل الماضي على الحاضر وأثر ذلك في التفسير.

سادساً: عرضت في المبحث الخامس: دلالة الفعل الماضي على الاستمرار والدوام وأثر ذلك في التفسير.

سابعاً: وثقت المادة العلمية في البحث على النحو التالي:

أ – عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها في القرآن الكريم ذاكراً اسم السورة ورقم الآية.

ب – التزمت بكتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني.

ج – وثقت القراءات القرآنية من مصادرها الأصلية وبينت المتواتر من الشاذ.

د – خرجت الأحاديث من مصادرها المعتمدة.

هـ – وثقت أقوال الأئمة من مظانها الأصلية.

ثامناً: ربطت بين عنوان البحث ومحتواه في عرض المسائل وتوظيف ذلك في الترجيح .

تاسعاً: ضمنت البحث بخاتمة توضح أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

التمهيد: التعريف بالفعل الماضي.

يقسم العلماء المعاني إلى ثلاثة: الذات والحدث والرابطة، فالذات: الاسم، والحدث: الفعل، والرابطة: الحرف، ويقولون أيضاً: إنّ الكلمة إنْ دلت على معنى في غيرها فهي الحرف، وإن دلت على زمان محصل فهي الفعل.

فالفعل إذاً: ما دل على اقتران حدث بزمان.

وبعضهم يقول: إن الفعل ما دل على حدث وزمان ماض أو مستقبل؛ إلّا أنه اعترض على هذا بأنه لم يذكر الحال، وأن الأفعال على ثلاثة أقسام: منها ما يدل على الماضي، ومنها ما يدل على الحال، ومنها ما يدل على الاستقبال، فكان المفترض أن يقول: ما دل على حدث وزمان، ماض أو حال أو مستقبل.

وما قيل في التعريف الأول لعله الأولى لإطلاقه، فيقال: إن الفعل ما دل على اقتران حدث بزمان، فهو أسلم.

ومن خصائص الفعل صحة دخول قد وحرفي الاستقبال "السين وسوف"، والجوازم، ولحوق المتصل البارز من الضمائر، وتاء التأنيث الساكنة، نحو: قد فعل، وقد يفعل، وسوف يفعل وسيفعل، ولم يفعل، وفعلتُ، ويفعلنْ، وافعلي، وفعلتْ.

ومن أصناف الفعل: الماضي.

وهو الدال على اقتران حدث بزمان قبل زمانك، وهو مبني على الفتح، إلّا أن يعترضه ما يوجب سكونه أو ضمه، فالسكون عند الإعلال ولحوق بعض الضمائر، والضم مع واو الضمير.

ومن أمثلة بنائه على الفتح الظاهر، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالفعل "نزَّل" لم يتصل به شيء.

ومن أمثلة بناءه على السكون، وهو إذا اتصل به ضمير رفع متحرك "تاء الفاعل، نون النسوة، أو نا الفاعلين"، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥٦]، ونحو: ﴿ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣١]، ونحو: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن أمثلة بنائه على الضم الظاهر إذا صح آخره واتصلت به واو الجماعة، نحو: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾ [يونس: ٢٦][(١)].

(١) انظر: المفصل في علم اللغة العربية، للزمخشري (ص٢٩٢)، البسيط في شرح جمل الزجاجي، لابن أبي الربيع الإشبيلي (١٦٦/١)، الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (٢٠/٣)، المرجع الأساسي في النحو العربي، لسعيد الزهراني (٤١/١).

المبحث الأول: دلالة الفعل الماضي على الزمن الماضي وأثره في التفسير

هذه الدلالة – أعني وقوع الفعل بزمن الماضي – هو الاستعمال الغالب والأكثر، بل هو الأصل فلا يمكن صرفه عن الزمن الماضي إلّا بقرينة تدل على ذلك، كما سيأتي في بقية المباحث القادمة، مثال ذلك: قرأ الرجل الكتاب.

فقرأ: فعل حدث في الزمن الماضي، لكن أي ماضٍ بالتحديد؟ الجواب: إن الفعل حدث قبل زمان تلفظك به، ومثله نحو: قام زيد، فيحتمل الماضي القريب، والماضي البعيد(١).

ولهذا لن أطيل في ذكر الأمثلة لهذه الدلالة لوضوحها ولكونها الأصل في الفعل الماضي، ومن الأمثلة على ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ ... الآية [البقرة: ٣٠].

قوله: "إذ قال"، إذ: ظرف للزمن الماضي، فهو من الأسماء المبهمة، تدل على زمان نسبة ماضية وقعت فيه نسبة أخرى ماضية قارنتها، وهو يخلّص المضارع للمضيّ.

قال المبرد: "إذا جاء"إذ" مع المستقبل كان معناه ماضياً، كقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] يريد: إذ مكروا، وإذا جاء مع الماضي كان معناه مستقبلاً، كقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقد يبقى على مضيه كهذه الآية"(٢).

فـ"إذ" تحتاج إلى جملتين، جملة أصلية، وهي الدالة على المظروف، وتلك هي التي تكون مع جميع الظروف، وجملة تبين الظرف ما هو؛ لأن "إذ" لما كانت مبهمة احتاجت لما يبين زمانها مع بقية الأزمنة، فلذلك لزمت إضافتها إلى الجمل أبداً.

فـ"إذ" كما سبق اسم زمان مفعولاً به بتقدير اذكر، ونظيره كثير في القرآن، والمقصود من تعليق الذكر والقصة بالزمان إنما هو ما حصل في ذلك الزمان من الأحوال، وتخصيص اسم الزمان دون اسم المكان؛ لأن الناس تعارفوا على إسناد الحوادث التاريخية والقصص إلى أزمان وقوعها(٣).

---

(١) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (١٨٧/١)، همع الهوامع، للسيوطي (٢٣/١)، الفعل في نحو ابن هشام (ص١٣٦) .

(٢) لم أجد نص المبرد في كتبه – فيما اطلعت عليه – في المقتضب (٥٢/٢-١٧٨)، وقد ذكره الواحدي في البسيط (٣٠٦/٢)، و اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (٤٩٤/١).

(٣) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي (٢٤٧/١)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (٤٩٥/١)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٨٢/١).

المبحث الثاني: دلالة الفعل الماضي على الزمن المستقبل وأثره في التفسير

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: إذا وقع الفعل الماضي بعد أداة الشرط (إن) وما يتضمن معناها فإن زمانه حينئذ يكون مستقبلاً[(١)].

مثال ذلك: إذا قلت لمخاطبك: إن زرتني أكرمتك، كان هذا الأسلوب أقوى من قولك: إن تزرني أكرمك؛ لأن صيغة الماضي تدل على ثبوت الأمر وتحقيقه، فكأن الإكرام واقع لا محالة، وبلا شك.

قال المبرد: "والحروف تدخل على الأفعال، فتنقلها نحو قولك: "ذهب ومضى فتخبر عما سلف؛ فإن اتصلت هذه الأفعال بحروف الجزاء نقلتها إلى ما لم تقع نحو: (إن جئتني أكرمتك؛ وإن أكرمتني أعطيتك)؛ فإن معناه: إن تكرمني أعطك"، ثم قال: "وتقع – يعني صيغة الماضي – موقع المضارعة في الجزاء في قولك: إنْ فعلتَ فعلتُ؛ فالمعنى: إن لم تفعلْ أفعلْ"، ثم قال: "وقد يجوز أن تقع الأفعال الماضية في الجزاء على معنى المستقبلية؛ لأن الشرط لا يقع إلا على فعل لم يقع؛ وذلك قولك: إن أتيتني أكرمتك، وإن جئتني جئتك، فإن قال قائل: فكيف أزالت الحروف هذه الأفعال عن مواضعها، وإنما هي لما مضى في الأصل؟ قيل له: الحروف تفعل ذلك لما تدخل له من المعاني، ألا ترى أنك تقول: زيد يذهب يا فتى؛ فيكون لغير الماضي، فإن قلت: لم يذهب زيد، كان بـ(لم) نفياً لما مضى؛ وصار معناه: لم يذهب زيد أمس؛ واستحال: لم يذهب زيد غداً"[(٢)].

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب ما يلي:

١ – قال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فقوله: "فقد اهتدوا" جواب الشرط في قوله: "فإن آمنوا"، وليس الجواب محذوفاً كما في قوله: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ [فاطر: ٤]، لأن تكذيب الرسل ماض محقق هناك، فاحتجنا إلى تقدير جواب، وأما هنا فالهداية منهم لم تقع بعد، فهي مستقبلية معنى، وإن أبرزت في لفظ المعنى، فالآية تدل على أن الهداية كانت موجودة قبلهذا الاهتداء، وتلك الهداية لا يمكن حملها إلا على الدلائل التي نصبها الله تعالى، وكشف عنها وبين وجوه دلالتها[(٣)]، ولذلك قال الزجاج: "فقد اهتدوا، أي فقد صاروا مسلمين مثلكم"[(٤)].

---

(١) انظر: شرح الرضي على الكافية للرضي (٢/٢٢٥) .

(٢) انظر: المقتضب للمبرد(١/١٨٥)، (٢/٢-٥٠).

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢/٥٢٣) .

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٢١٤) .

وقال الطبري: "وإنما معناه وهو: فإن صدقوا مثل تصديقكم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه فقد اهتدوا، فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والإقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء"(١).

وقد قيل في تفسير هذه الآية: فإن آمن اليهود بمثل ما آمنتم كمؤمنيهم قبل التحريف، فإنهم آمنوا بمثل ما آمن المؤمنون، فيما أوتي به النبيون في زمن مُحَمَّد ﷺ ما أنزل إليه —ولم يكن ذلك قبله — إلّا أن هذا التوجيه يقتضي إبقاء صيغة الماضي على معناها، كما في قولهم: إن أكرمتني أكرمك(٢).

٢ — قال تعالى: ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[البقرة].

قوله تعالى: "**فَآءُو**" رجعوا؛ أي رجعوا إلى قربان النساء، وحذف متعلق (فاؤوا) بالظهور المقصود، والفيئة تكون بالتكفير عن اليمين المذكورة في سورة العقود، وقوله: "فإن الله غفور رحيم" دليل الجواب؛ أي فحنثهم في يمين الإيلاء مغفور لهم؛ لأن الله غفور رحيم.

وقوله: "وإن عزموا الطلاق"، دليل على شرط محذوف، دل عليه قوله (فإن فاءوا) فالتقدير: وإن لم يفيئوا فقد وجب عليهم الطلاق، فهم بخير النظرين بين أن يفيئوا أو يطلقوا، فإن عزموا الطلاق فقد وقع طلاقهم(٣).

وعلى هذا اختلف العلماء في قوله تعالى: (فاءوا)، و(إن عزموا)، هل الفيئة والعزيمة تكون في أربعة أشهر أو بعد مضي أربعة أشهر؟ هما قولان للعلماء؛ ولكن ليعلم أنه لم يرد في السنة النبوية المطهرة ما يدل على أن المدة التي تؤلي عليها ولا على صفة الفيئة ولا على عزيمة الطلاق، قال الشافعي: "لم يحفظ عن رسول الله في هذا — بأبي هو وأمي — شيئاً"(٤).

ولهذا فاعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم، وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ، ولا دليل آخر ومعناها ظاهر واضح(٥).

القول الأول : روي عن عمر وعثمان وعلي وعائشة وابن عمر — رضي الله عنهم جميعاً — أنه إذا مضت أربعة أشهر وقف المُؤلي،، فإما أن يفيء، وإما أن يطلق.

وبهذا أخذ مالك والشافعي وأحمد وإسحاق — رحمهم الله —(٦).

---

(١) انظر: تفسيره (٢/٦٠٠) .

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي (١/٥٤٠) .

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور(٢/٣٦٦) .

(٤) انظر: الرسالة للشافعي(ص٥٧٨) .

(٥) انظر: نيل المرام في تفسير آيات الأحكام، للشوكاني (١/١٦٢) .

(٦) رواها عنهم الطبري في تفسيره (٤/٧٦)، وانظر: الاستذكار، لابن عبدالبر (١٧/٨٣)، معالم التنزيل، للبغوي (١/٢٩٧)، =

القول الثاني: روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: أن عزيمة الطلاق انقضاء أربعة أشهر، والفيئة فيما بين أن يؤلي إلى انقضاء أربعة أشهر، فإن فاء، وإلا فعزيمة الطلاق انقضاء المدة.

وبهذا القول قال أبو حنيفة[1] رحمه الله.

وقد احتج أصحاب القول الأول بما يلي:

أولاً: قالوا: إن في سياق الآية ما يدل على ما وصفنا به، وذلك لما ذكر الله تعالى أن للمؤلي أربعة أشهر، ثم قال: ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، فذكر الحكمين معاً بلا فصل بينهما، فدلّ على أنهما يقعان بعد الأربعة الأشهر؛ لأنه إنما جعل عليه الفيئة والطلاق، وقد جعل له الخيار فيهما في وقت واحد، ولا يتقدم واحد منهما صاحبه، وقد ذُكرا في وقت واحد، كما يقال في الرهن: اِفدِه أو نبيعه عليك، بلا فضل، وفي كل ما خير فيه عليه افعل كذا أو كذا، بلا فصل، فلا يجوز أن يكونا ذكرا بلا فصل، ويقال: الفيئة فيما بين أن يؤلي إلى أربعة أشهر، وعزيمة الطلاق – أيضاً – انقضاء الأربعة الأشهر، فيكونان حكمين ذكرا معاً، يفسح في أحدهما ويضيق في الآخر[2].

إلّا أن لمخالف القول أن يستدرك على هذا الاستدلال بأن يقول: لم يفسح في أحدهما ويضيق في الآخر، بل هو مخير بينهما في مدة الأربعة الأشهر، فإما أن يفيء، وإما أن يطلق، ويتحقق التخيير بين الخصلتين عند انقضاء المدة، وجعلنا انقضاء المدة قائماً مقام اللفظ بالطلاق، وقبل انقضاء المدة إذا لم يبق بعد الأربعة الأشهر زمان يملك فيه الطلاق.

ثانياً: قالوا: إن من أنظره الله تعالى أربعة أشهر في شيء لم يكن عليه سبيل حتى يمضي أربعة أشهر، فإذا مضت، كان عليه السبيل، وهو إما أن يفيء، وإما أن يطلق، كما لو قال: أُخلّيك أربعة أشهر لم يكن له الأخذ منك إلا حتى تنقضي الأربعة الأشهر.

فإن قيل: أنظر الله سبحانه أربعة أشهر في شيء وخيره فيه إلى انقضائها، فإما أن يمضي أو يلزم الفراق بانقضائها.

قيل: ذلك خلاف المفهوم من الخطاب، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: "وإن عزموا الطلاق"، ومفهومه أن من لم يعزم الطلاق في المدة، بل كان عزمه الفيئة إلى انقضاء المدة أن يخالف حكمه حكم العازم على الطلاق، إذا لم يطلق بلسانه، ولم يعزم عليه، وأبو حنيفة لا يفرق بينهما، فدل على أن المراد بالفيئة عزيمة الطلاق بعد مضي المدة، لكن مفهوم الخطاب عنده ليس بحجة.

= أحكام القرآن، لابن العربي (٢٤٥/١)، حاشية الدسوقي (٦٨٣/٢)، مغني المحتاج للشربيني (٢٥/٥)، المغني، لابن قدامة (٣٠/١١) .

(١) انظر: الاختيار لتعليل المختار للموصلي (٢٠٠/٢)، أحكام القرآن للجصاص (٣٥٦/١) .

(٢) انظر: الرسالة للشافعي (ص٨٥١) .

ثالثاً: من وجوه الدلالة أن الفاء تكون جواباً للشرط، وما هو في معنى الشرط، وفي هذه الآية معنى الشرط، فكأنه قيل لمن آلى من امرأته: يتربص أربعة أشهر، فإن فاء فإن الله غفور رحيم، وإن عزم الطلاق فإن الله سميع عليم.

ففهم من هذا أن مراد المتكلم ترتيب الفيئة والعزيمة على ذلك، كما يترتب الجزاء على الشرط، ولو لم تدخل الفاء في الجواب لاستوى الاحتمالان، فلما دخلت كان هذا هو الظاهر، وهو كونهما حكمين مشروعين متراخيين عن انقضاء الأربعة الأشهر.

فإن قيل: ما ذكرتموه ممنوع؛ لأن قوله: ﴿ فَإِن فَآءُو ..... وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ ﴾تفصيل لقوله: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾، والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول: أنا أنزل عندكم هذا الشهر فإن أكرمتموني بقيت معكم، وإلا ترحلت عنكم.

قيل: هذا ضعيف؛ لأن قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ ﴾، هذه المدة تدل على الأمرين، والفاء في قوله: "فإن فاءوا" ورد عقيب ذكرهما، فيكون هذا الحكم مشروعاً عقيب الإيلاء، وعقيب حصول التربص في هذه المدة بخلاف المثال الذي ذكره، وهو قوله: أنا أنزل عندكم فإن أكرمتموني بقيت وإلا ترحلت؛ لأن هناك الفاء متأخرة عن ذلك النزول، أما هاهنا فالفاء مذكورة عقيب ذكر الإيلاء، وذكر التربص، فلا بد وأن يكون ما دخل الفاء عليه واقعاً عقيب هذين الأمرين، وهذا كلام ظاهر.

واستدل أبو حنيفة لما ذهب إليه بما يلي:

أولاً: ورد أنه قرأ عبدالله بن مسعود ﷺ "فإن فاءوا فيهن" وكذلك أُبي ﷺ قال: "فإن فاءوا فيها"[(١)]، والضمير للأشهر[(٢)].

إلّا أن هذه القراءة شاذة مردودة، لأن كل ما كان قرآناً وجب أن يثبت بالتواتر، فحيث لم تثبت القراءتان بالتواتر قطعنا أنها ليست بقرآن، إضافة إلى ذلك إن الأصل ترك الإضمار، إلّا أن يدل الدليل على وجوب الإضمار فيضمر، ولا دلالة هنا، وقراءة الجمهور ظاهرها أن الفيئة والطلاق إنما تكون بعد مضي الأربعة الأشهر[(٣)].

ثانياً: أن الله تعالى جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفيئة بعدها لزادت على مدة النص، وذلك لا يجوز.

إلا أنّ أصحاب القول الأول قالوا: إننا لا نزيد عليها، وإنما نقدر بها مطالبة الفيئة في مدة التربص.

---

(١) انظر: الكشاف، للزمخشري (٢٩٧/١)، المحرر الوجيز، لابن عطية (٢٦٩/٢)، التفسير الكبير، للرازي (٤٣١/٢)، البحر المحيط، لأبي حيان (٢٩١/٢) .

(٢) انظر: اللباب، لابن عادل الحنبلي (١٠٥/٤) .

(٣) انظر: أحكام القرآن، للجصاص (٣٥٦/١)، أحكام القرآن، لابن العربي (ص٢١١)، المحرر الوجيز لابن عطية(٢٦٩/٢)، التفسير الكبير للرازي (٤٣١/٢)، أحكام القرآن، للقرطبي (٣٠/٤)، تيسير البيان لأحكام القرآن، للخطيب اليمني (١١/٢).

ثالثاً: قال: إنه لو وطئها في مدة الإيلاء وقعت الفيئة موقعها، فدل على استحقاق الفيئة فيها، قال: ولأنها مدة شرعية تثبت بالقول فيتعلق بها الفرقة، فوجب أن تتعقبها البينونة كالعدة؛ ولأنه قول تعلق به الفرقة إلى مدة فوجب أن يقع بانقضائها، كما لو قال: إذا مضت أربعة أشهر فأنت طالق.

لكن استدرك على هذا الدليل من قبل أصحاب القول الأول، فقالوا: قولهم: إن جواز الفيئة فيها دليل على استحقاقها فيه فهو باطل بالدَّيْن المؤجَّل يجوز تقديمه قبل أجله، ولا يدل ذلك على استحقاقه فيه، وأما الجواب عن قياسهم على العدة مع انتفاضه بمدة العُنَّة فهو أن المدة فيها لما تقدمتها الفرقة جاز أن تقع بها البينونة، ولما لم تتقدم مدة الإيلاء لم يجوز أن تقع بها الفرقة.

وأما الجواب عن قياسهم إذا علق طلاقها بمضي أربعة أشهر مع انتفاضة بمدة العنة، إن المعنى فيه أنه لو علق بأقل من مدة أربعة أشهر وقع قبلها ولو علق بأكثر من أربعة أشهر لم يقع قبلها وليس الإيلاء عندهم كذلك[1].

الترجيح:

لعل الراجح والله أعلم ما قال به أصحاب القول الأول لقوة ما ذهبوا إليه وهو الذي يدل عليه سياق الآية وترتيبها، إضافة إلى ذلك القاعدة: والأسلوب النحوي الذي نحن بصدد الحديث عنه، وهو أن الفعل الماضي إذا وقع بعد أداة الشرط (إن) فإن زمانه حينئذ يكون مستقبلاً، فمعناه أن الفيء والعزم لا يكون داخلاً في الأربعة الأشهر، وإنما شيء خارج ذلك، ولو أجريناه – أي الفعل الماضي – على بابه هنا لقلنا بما قال به أبو حنيفة – والله تعالى أعلم –.

قال الطبري: "وأشبه هذه الأقوال بما دل عليه ظاهر كتاب الله تعالى ذكره قول عمر ابن الخطاب وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ومن قال بقولهم في الطلاق، أن قوله: ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾، إنما معناه: فإن فاؤوا بعد وقف الإمام إياهم من بعد انقضاء الأشهر الأربعة، فرجعوا إلى أداء حق الله عليهم لنسائهم اللائي آلوا منهن، فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فطلقوهن، فإن الله سميع لطلاقاتهم إذا طلقوا، عليم بما أتوا إليهن"[2].

وبهذه الأمثلة يتبين أن الفعل الماضي إذا وقع بعد أداة الشرط (إن) فإن زمانه يكون حينئذ مستقبلاً، والمقصود من الإتيان بلفظ الماضي هو تأكيد للجزاء، وتحقيق لحصوله، بمعنى أنه واقع لا محالة، وفي هذا قوة الدلالة على المعنى وكمالها.

يقول ابن القيم: "السر في ذلك أن تنزيل الشرط بالنسبة إلى الجزاء منزلة الفعل الماضي؛ فإن الشرط لا يكون إلّا سابقاً للجزاء متقدماً عليه ... ألا ترى أنك إذا قلت: إن اتقيت الله أدخلك الجنة، فلا

(١) انظر: الحاوي الكبير، للماوردي (٣٤١/١٠) .

(٢) انظر: تفسيره (٨٦/٤) .

يكون إلّا سابقاً على دخول الجنة، فهو ماض بالإضافة إلى الجزاء؛ فأتوا بلفظ الماضي تأكيداً للجزاء، وتحقيقاً؛ لأن الثاني لا يقع إلا بعد تحقيق الأول ودخوله في الوجود"[1].

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٠٥) .

المطلب الثاني: إذا كان الفعل الماضي وقع بالإخبار عن الأمور المستقبلية مع قصد القطع بوقوعها(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

١ – قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، فقوله سبحانه: "يقدم" فعل مضارع، وقد عطف عليه فعلاً ماضياً، وهو "فأوردهم"، وإنما جاء "فأوردهم" بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع ذلك الإيراد، وإلّا فقرينة قوله: "يوم القيامة تدل على أنه لم يقع في الماضي"(٢).

فقوله سبحانه: "فأوردهم" يجوز أن تكون هذه المسألة من باب الإعمال، وذلك أنّ "يقدمُ" يصلح أن يتسلط على "النار" بحرف الجر، أي: يقدم قومه إلى النار، وكذا: "أوردهم" يصلح تسلطه عليها أيضاً، ويكون قد أعمل الثاني للحذف من الأول، ولو أعمل الأول؛ لتعدى بـ "إلى" ولأضمر في الثاني، ولا محل لـ" أورد" لاستئنافه، وهو ماضٍ لفظاً مستقبل معنىً؛ لأنه عطف على ما هو نص في الاستقبال.

والهمزة في "أورد" للتعدية؛ لأنه قبلها يتعدى لواحد، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقيل: أوقع المستقبل بلفظ الماضي هنا لتحقق وقوعه لا محالة، فكأنه قد وقع؛ ولما في ذلك من الإرهاب والتخويف.

وقيل: بل هو ماضٍ على حقيقته، وهذا قد وقع وانفصل؛ وذلك أنه أوردهم في الدنيا النار، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

وقيل: أوردهم موجبها وأسبابها، وفيه بعد لأجل العطف بالفاء(٣).

قال الرازي: "فإن قيل لمَ لمْ يقل: يقدم قومه فيوردهم النار؟ بل قال: يقدم قومه فأوردهم، بلفظ الماضي، قلنا: لأن الماضي قد وقع ودخل في الوجود، فلا سبيل ألبتة إلى دفعه، فإذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل على غاية المبالغة"(٤).

٢ – قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

فقوله: "ينفخ" فعل مضارع، وعطف عليه قوله: "ففزع"، وهو فعل ماض، إلّا أنه جيء بصيغة الماضي فيها مع أن النفخ مستقبل، ولم يقل: "فيفزع"، لتحقق وقوعه، وهو الفزع وأنه واقع لما محالة، لأن

(١) انظر: شرح الرضي على الكافية للرضي(٢/٢٢٥) .

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور(١١/٣٢٥) .

(٣) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/٣٣٧)، واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٠/٥٥٨) .

(٤) انظر: التفسير الكبير للرازي (٦/٣٩٤) .

المضي يستلزم التحقق فصيغة الماضي كناية عن التحقق، وقرينة الاستقبال ظاهرة من المضارع في قوله "ينفخ"[1].

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور(٣١٦/١٩) .

المطلب الثالث: إذا وقع الفعل الماضي بعد القسم منفياً بـ"لا" أو "إن"[١].

ومن الأمثلة على النفي بـ "إنْ" في جواب القسم :

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ [فاطر: ٤١].

قوله: "ولئن زالتا" أي أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير، ويؤيد ذلك قراءة ابن أبي عبلة: "ولو زالتا"[٢].

وقيل: إن ذلك إشارة إلى ما يقع يوم القيامة من طي السماوات ونسف الجبال "إن أمسكهما" أي: ما أمسكهما "من أحد من بعده"، أي بعد إمساكه تعالى أو من بعد الزوال، والجملة جواب في القسم المقدر قبل لام التوطئة في "لئن" وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، وأمسك بمعنى يمسك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ ﴾ [البقرة: ١٤٥][٣]، ولهذا جاء بـ"ولئن" بالماضي من الفعل وحكمها الجواب بالمستقبل تشبيهاً لها بـ"لو" لأنهما يجابان بجواب واحد فيتشابهان في المعنى[٤].

ولم أجد مثالاً في القرآن الكريم يصلح أن يكون الفعل الماضي وقع منفياً بـ "لا" في جواب القسم، ومثاله: "والله لا فعلت".

(١) انظر: شرح الرضي على الكافية للرضي(٢/٢٢٥) .

(٢) قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان(٧/٣١٨)، الكشاف للزمخشري (٢/٥٨٠) .

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي(٢١/٥١٦) .

(٤) انظر: جامع البيان للطبري (٢/٦٦٧) .

المطلب الرابع: إذا كان القصد من الإتيان بالفعل الماضي سياق الكلام للوعد.

ومن الأمثلة على ذلك:

١ – قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ [النحل: ١].

في قوله تعالى: "أتى" ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن "أتى" بمعنى يأتي، كما يقال: أتاك الخير فأبشر، أي: سيأتيك.

وقول القائل: إذا أكرمتني أكرمتك، أي: أكرمك، فإذاً هنا "أتى" بمعنى سيأتي، وشاهده من القرآن قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويستدل لهذا القول: ما جاء في سبب النزول: "وهو عندما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ ﴾ [القمر: ١]، فقال الكفار لبعضهم البعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد اقتربت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء؛ قالوا: ما نرى شيئاً!!، فأنزل الله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾ [الأنبياء: ١]، فأشفقوا، وانتظروا قرب الساعة، فلما امتدّت الأيام قالوا: يا مُحَمَّد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، فنزل: ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ فاطمأنوا"[(١)].

وهذا القول هو المشهور.

القول الثاني: أن المراد بـ"أتى" بمعنى قَرُب، ودنا، أي جاء أمر الله ودنا وقرب، وبدت مقدماته وأماراته، والمراد نصر رسول الله ﷺ.

قال الطبري: "ويقول تعالى ذكره: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ فقرب منكم أيها الناس ودنا، فلا تستعجلوا وقوعه"[(٢)].

وقال ابن عطية: "وقال قوم (أتى) بمعنى قرب، وهذا نحو ما قلت، وإنما يجوز الكلام بهذا عندي لمن يعلم قرينة التأكيد، ويفهم المجاز، وأما إن كان المخاطب لا يفهم القرينة، فلا يجوز وضع الماضي موضع المستقبل؛ لأن ذلك يفيد الخبر ويوجب الكذب، وإنما جاز في الشرط لوضوح القرينة بـ"إنْ""[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٩/١٤)، وذكر في أسباب النزول للواحدي (ص٢٣٣)، في أسباب النزول والقصص الفرقانية للعراقي (٥١٤/١)، وفي لباب النقول للسيوطي(ص١٧٤) .

(٢) انظر: تفسيره (١٥٨/١٤) .

(٣) انظر: تفسيره (٣٦٥/٨) .

القول الثالث: أن المراد بـ"أتى" للماضي، فالفعل باقٍ على معناه، وهو المضي، والمعنى: أتى أمر الله وعداً فلا تستعجلوه وقوعاً، ولهذا فسروا قوله: "أتى أمر الله" أي أتى بعض عذاب الله، وهو الجدب الذي نزل بهم والجوع.

وقوله: "فلا تستعجلوه" أي فينزل بكم مستقبلاً كما نزل ماضياً.

قال الرازي: "والوجه الثاني: وهو أن يقال: إن أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع، فأما المحكوم به فإنه لم يقع؛ لأنه تعالى حكم بوقوعه في وقت معين، فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود، والحاصل كأنه قيل: أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل، ووجد من الأزل إلى الأبد، فصح قولنا أتى أمر الله، إلا أن المحكوم به والمأمور به إنما لم يحصل؛ لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين، فلا تستعجلوه، ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت"(١).

قال الآلوسي مضعِّفاً هذا القول: "وبعضهم أبقى الفعل على معناه الحقيقي، وزعم أن المعنى: أتى أمر الله وعداً فلا تستعجلوه وقوعاً، وهو كما ترى"(٢).

الترجيح:

الراجح والله تعالى أعلم أن الفعل الماضي هنا "أتى" بمعنى "سيأتي" أي في المستقبل، فهو إخبار عن إتيان بما سيأتي على جهة التأكيد، وإذا كان الخبر حقاً يؤكد المستقبل بأن يخرج في صيغة الماضي؛ أي كأنه لوضوحه والثقة به قد وقع ويحسن ذلك في خبر الله تبارك وتعالى لصدق وقوعه(٣).

قال ابن عاشور: "﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾، لما كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراك وتوابعه، وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك، وكان قد تكرر وعيدهم من قبل في آيات كثيرة بيوم يكون هو الفارق بين الحق والباطل، فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدتهم، وكانوا قد استبطأوا ذلك اليوم حتى اطمأنوا أنه غير واقع فصاروا يهزأون بالنبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم، صدرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حلَّ ذلك المتوعد به، فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحقق الوقوع بقرينة تفريع "فلا تستعجلوه"؛ لأن النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنه لما يحل بعد"(٤).

(١) انظر: تفسيره (١٦٨/٧) .

(٢) انظر: تفسيره (٤٤٦/١٣) .

(٣) انظر: تفسير جامع البيان للطبري (١٥٨/١٤)، وتفسير القرآن للسمعاني (١٥٨/٣)، وزاد المسير لابن الجوزي (٤٢٧/٤)، واللباب لابن عادل الحنبلي (٣/١٢)، والدر المصون للسمين الحلبي (١٨٧/٧).

(٤) انظر: تفسيره (٧٧/١٣) .

وقال الآلوسي: "وظاهر صنيع الكثير يشعر باختيار أن الماضي بمعنى المضارع على طريق الاستعارة بتشبيه المستقبل المتحقق بالماضي في تحقق الوقوع والقرينة عليه، قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾، فإنه لو وقع ما استعجل، وهو الذي يميل إليه القلب"(١).

٢ – قوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يس: ٥١]، وقوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨].

هذه الآيات العظيمة تدلّ على عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وما فيها من تهويل وتمثيل لمجموع الأحوال يومئذ مما ينذر الكافر، ويبشر المؤمن، ويذكر بإقامة العدل والحق، وكثيراً ما تبتدأ الآيات الكريمة المتحدثة عن أهوال يوم القيامة بالحديث عن النفخ في الصور؛ إذ هو ميقات يوم القيامة وما يتقدمه من موت كل حي على وجه الأرض.

وعبر سبحانه بالماضي في قوله: "ونفخ" – وما بعدها من ألفاظ تدل على الماضي – لأنه محقق الوقوع، وبنى الفعل "نفخ" للمفعول لعدم تعلق الغرض بالفاعل، بل الغرض إفادة هذا الفعل من أي فاعل كان، فكأنه قيل: ووقع النفخ في الصور.

ويجوز أن تكون الواو في قوله: "ونفخ" للحال، بتقدير (قد)، أي: والحال قد نفخ في الصور، فتكون صيغة الماضي في فعلي (نفخ وصعق) مستعملة في حقيقتها(٢).

٣ – قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾ [الكوثر: ١].

اختلف في قوله: "أعطيناك" هل الفعل هنا على بابه وهو الماضي، أو أن المراد به في المستقبل لكنه عبر بالماضي من باب البشارة، وهذا الخلاف نتج عنه الاختلاف في المراد بالكوثر.

فمن قال: إن المراد بـ"أعطيناك" هنا أنه سبحانه عبر بالفعل الماضي وأراد المستقبل من باب البشارة والوعد، قالوا: إن المراد بالكوثر نهر في الجنة، فعن أنس ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: "نزلت علي آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ ، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: "نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه

(١) انظر: تفسيره (٤٤٦/١٣) .

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي (٣٨٦/٢٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣١/٢٤) .

خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك"(١).

فقوله ﷺ: "وعدني ربي" يدل على أن هذا الأمر مستقبل.

ومن قال: إن المراد بـ"أعطيناك" هنا هو ما أعطاه الله سبحانه وتعالى لنبيه في الدنيا، فمن قائل: عنه الخير الكثير، وهذا مروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد(٢).

ومن قائل: إن المراد به القرآن، وبه قال الحسن، ومن قائل: إن المراد به النبوة، وبه قال عكرمة، ومن قائل: إن المراد به الإسلام، وبه قال ابن المغيرة، ومن قائل: إن المراد به هو الإيثار، وبه قال ابن كيسان، وقيل: إن المراد به الصلوات الخمس(٣).

والقول بأن قوله سبحانه: "أعطيناك" هو تعبير بالماضي وإرادة المستقبل هو القول الراجح في ذلك.

قال ابن عاشور: "افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي ﷺ كما تقدم في ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر: ١]، والكلام مسوق مساق البشارة، وإنشاء العطاء، لا مساق الإخبار بعطاء سابق، وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم"(٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، حديث (٤٠٠) (ص١٧٠) .

(٢) رواها عنهم الطبري في تفسيره (٦٨٠/٢٤) .

(٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٢٤٩/٩)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٢٠/٢٠) .

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٥٧٢/٣٠) .

المطلب الخامس: دخول "ما" النائبة عن الظرف المضاف على الماضي[(١)].

لتضمنها معنى "إن"، ومثله: ما دامت السموات والأرض" أي: إن دامت قليلاً أو كثيراً.

والأمثلة على ذلك من القرآن:

قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨].

أكثر أهل المعاني والتفسير على أن قوله: "ما دامت السموات والأرض" للتأبيد، والمراد به خالدين فيها أبداً[(٢)].

قال ابن زيد: "في قوله: " ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾، قال: ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء"[(٣)].

وقال الضحاك: "ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما، وكل ما علاك وأظلك فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك وثبت فهو أرض".

وقال الحسن: "أراد: ما دامت الآخرة كدوام السماء والأرض في الدنيا"[(٤)].

وقال ابن قتيبة: "للعرب في معنى الأبد ألفاظ يستعملونها في كلامهم، يقولون: لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار، وما طما البحر، وما أقام الجبل، وما دامت السماء والأرض في أشباه كثيرة لهذا، يريدون: لا أفعله أبداً، فخاطبهم الله بما يستعملون"[(٥)].

وقال ابن الأنباري: "إن الله تعالى خاطب العرب على ما تعقل، ومن ألفاظهم في التأبيد، أن يقولوا: لا أفعل ذلك ما دامت السموات والأرض، وما أن السماء سماء، وما بل بحر صوفه، وما ناحت الحمام وتغنت، وما أطت الإبل، وما اجترت الناب، وما لألأت الفور، فلما كانوا يستعملون هذه الألفاظ ظناً منهم أن هذه الأشياء لا تتغير خاطبهم الله على سبيل ذلك، فقال تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ ، عندكم وليست عندنا دائمة، كما قال – يعني أبا جهل –: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان: ٤٩]، أي عند نفسك، فأما عندنا فلا"[(٦)].

(١) انظر: شرح الرضي على الكافية للرضي (٢/٢٢٥) .

(٢) انظر: الطبري (١٢/٥٧٨)، البسيط للواحدي (١١/٥٥٦، والبغوي (٤/٢٠٠)، وابن الجوزي (٤/١٥٩) .

(٣) رواه عنه الطبري في تفسيره (١٢/٥٧٩) .

(٤) ذكرها عنهما الواحدي في البسيط (١١/٥٥٧) .

(٥) انظر: مشكل القرآن لابن قتيبة (١/٢١٣) .

(٦) ذكره عنه الواحدي في البسيط (١١/٥٥٧) .

فالتأبيد هنا جرى مجرى المثل، وإلّا فإن السموات والأرض المعروفة تضمحل يومئذ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، أو يراد سموات الآخرة وأرضها.

وعلى هذا القول فمعنى الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾، قال الفراء: "هذا استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله، كقولك: والله لأضربنّك، إلا أن أرى غير ذلك، وعزيمتك على ضربه، فكذلك قال: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ ولا يشاؤه"(١).

فالاستثناء هنا ضمير "خالدين" بمعنى لو شاء أن لا يخلدهم لقدر، وهذا الاستثناء لا يفيد نقص شيء من التأبيد، و(ما) هنا تطلق على العاقل، كقوله تعالى: ﴿ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣].

وقيل: إن الاستثناء هنا استثناء من الأزمان التي عمّها الظرف في قوله: "ما دامت"، أي إلّا الأزمان التي شاء الله فيها عدم خلودهم، ويستتبع ذلك استثناء بعض الخالدين تبعاً للأزمان، وهذا بناء على غالب إطلاق (ما) الموصولة أنها لغير العاقل، وهو الزمان هنا.

والمعنى: أما الذين شقوا ففي النار في كل زمان بعد إتيان ذلك اليوم، إلا زماناً شاء الله تعالى فيه عدم كونهم فيها وهو زمان موقف الحساب(٢).

وقيل: إن قوله تعالى: "ما دامت السموات والأرض" معناه أن الله تبارك وتعالى يبدل السموات والأرض يوم القيامة ويجعل الأرض مكاناً لجهنم والسماء مكاناً للجنة، ويتأبد ذلك، فقرنت الآية خلود هؤلاء ببقاء هذه، ويروى عن ابن عباس أنه قال: "إن الله خلق السموات والأرض من نور العرش ثم يردهما إلى هنالك في الآخرة فلهما ثَمَّ بقاءٌ دائم"(٣)، وتكون (ما) هنا مصدرية ظرفية(٤).

(١) انظر: معاني القرآن للفراء(٢/٢٨) .

(٢) انظر: البسيط للواحدي (١١/٥٥٦)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١١/٣٣١).

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٧/٤٠١) .

(٤) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥/٣٤٢) .

المبحث الثالث: دلالة الفعل الماضي على المضي والاستقبال احتمالاً

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: يحتمل المضي والاستقبال إذا وقع الفعل الماضي بعد "كلما"؛ لأن فيه رايحة الشرط[(١)].

فالمضي نحو قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فالمعنى: كلما جاء أمةً من تلك الأمم التي أنشأناها بعد ثمود رسولُها الذي نرسله إليهم، كذبوه فيما جاءهم به من الحق من عندنا"[(٢)].

فالفعل "جاء" ماض حدثاً وزماناً، فالآية صريحة عما تتحدث به من الحديث عن الأمم السابقة.

ومن الاستقبال نحو قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ ... الآية [النساء: ٥٦].

قوله: "نضجت" يقال: نضج اللحم نُضْجاً ونَضْجاً إذا أدرك شيّه، أي بلغ نهاية الشيّ، نضج الشواء إذا بلغ حد الشيّ.

فهذه الآية وعيد من الله للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله على مُحَمَّد من يهود بني إسرائيل وغيرهم وسائر الكفار به وبرسوله يقول الله لهم .... ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾، يقول: كلما انشوت بها جلودهم فاحترقت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، قال الحسن: "﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾، تُنْضجهم في اليوم سبعين ألف مرة، وفي لفظ: تنضج النار كل يوم سبعين ألف جلد"[(٣)].

وقد قيل: إن في الآية استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع، يقال للموصوف بالدوام: كلما انتهى فقد ابتدأ، وكلما وصل إلى آخره فقد ابتدأ من أوله، فكذلك الآية الكريمة، يعني أنهم كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك أعطيناهم قوة جديدة من الحياة بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا، فالمقصود دوام العذاب وعدم انقطاعه[(٤)].

إلّا أن هذا التوجيه لم يعجب أبا حيان فقال: "وأبعد أيضاً من ذهب إلى أن هذا استعارة عن الدوام"[(٥)].

---

(١) انظر: شرح الرضي على الكافيةللرضي (٢/٢٢٥)، تسهيل الفوائد لابن مالك (ص٦)، همع الهوامع، للسيوطي (١/٢٥).

(٢) انظر: الطبري (١٧/٥٠) .

(٣) انظر: الطبري (٧/١٦٤)، المفردات للراغب (ص٨١٠)، التحرير والتنوير لابن عاشور(٤/١٥٨) .

(٤) انظر: التفسير الكبير للرازي (٤/١٠٦)، البحر المحيط لأبي حيان(٣/٣٩٠)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٦/٤٢٩) .

(٥) انظر: تفسيره (٣/٣٩٠) .

المطلب الثاني: إذا وقع الفعل الماضي بعد "حيث" فيحتمل المضي والاستقبال؛ لأن فيه رايحة الشرط[(١)].

فمثال الزمن الماضي قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٢].

فمعنى الآية أن يقال: "قد علم السامعون منه أنه أمر من الله كان قد حصل فيما قبل، وأما (حيث) فظرف مكان، وقد تستعمل مجازاً في التعليل فيجوز أن المراد بأمر الله الذي تضمنته الغاية (حتى) في قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ لأن غاية النهي تنتهي إلى الإباحة، فالأمر هو الإذن، و(من) للابتداء المجازي، و(حيث) مستعملة في التعليل مجازاً تخيلياً، أي: لأن الله أمركم بأن تأتوهن عند انتهاء غاية النهي بالتطهر، أو المراد بأمر الله الذي أباح التمتع بالنساء، وهو عقد النكاح فحرف (من) للتعليل والسببية، و(حيث) مستعار للمكان المجازي، وهو حالة الإباحة التي قبل النهي كأنهم كانوا محجوزين عن استعمال الإباحة أو حجر عليهم الانتفاع بها، ثم أذن لهم باستعمالها فشبهت حالتهم بحالة من حبس عند مكان ثم أطلق سراحه فهو يأتي منه إلى حيث يريد[(٢)].

ومثال الاستقبال قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

فقوله: "حيث" هنا ظرف لازم الإضافة إلى الجمل غالباً، والعامل فيها ما هو في محل الجزاء لا الشرط فهي هنا متعلقة بـ "ولِّ" والفاء صلة للتنبيه على أن ما بعدها لازم لما قبلها لزوم الجزاء للشرط؛ لأن حيث وإن لم تكن شرطية لكنها لدلالتها على العموم أشبهت كلمات الشرط ففيها رائحة الشرط، ولا يجوز تعلقها بـ"خرجتَ" لفظاً وإن كان ظرفاً له معنى لئلا يلزم عدم الإضافة، والمعنى: من أي موضع خرجت فولِّ وجهك من ذلك الموضع شطر ... إلخ.

وقوله: "خرجت": الخطاب هنا إما أن يكون للرسول ﷺ ، ويكون الفعل "خرج" على بابه وهو الزمن الماضي، وإما أن يكون الخطاب لكل من يتأتى خطابه، والمعنى: أي من حيث خرجت أيها الإنسان، ويكون الفعل هنا "خرجت" للاستقبال[(٣)].

قال الرازي: "والحاصل أن الآية السالفة الذكر أمر بالدوام في جميع الأمكنة، والثانية أمر بالدوام في جميع الأزمنة والأمكنة، والثالثة: أمر بالدوام في جميع الأزمنة وإشعار بأن هذا لا يصير منسوخاً ألبتة"[(٤)].

---

(١) انظر: شرح الرضي على الكافيةللرضي (٢/٢٢٥)، تسهيل الفوائد لابن مالك(ص٦)، همع الهوامع (١/٢٥) .

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/٣٥١) .

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي (١/٥٦٧)، وتفسير القرآن للعثيمين (٢/١٤٩) .

(٤) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢/١١٩) .

المطلب الثالث: إذا وقع الفعل بعد أحد حروف التحضيض (هلّا، لولا، لوما، ألّا) فإنه يحتمل الماضي والمستقبل(١).

فمثال الماضي في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦].

فقوله: "فلولا كان": "لولا" حرف تحضيض بمعنى "هلّا" وتحضيض الفائت لا يقصد منه إلا تحذير غيره من أن يقع فيما وقعوا فيه والعبرة بما أصابهم، فالمعنى فهلّا كان من القرون الذين قصصت عليكم نبأهم في هذه السورة، الذين أهلكناهم بمعصيتهم إياي، وكفرهم برسلي من قبلكم، فالآية سيقت مساق التوبيخ(٢).

ومن الاستقبال قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قيل: في معنى الآية قولان:

الأول: معناه: هلّا نفر من كل فرقة منهم طائفة، وهذا بناء على من يقول: إن "نفر" الفعل على معناه، وهو المضي.

الثاني: ما كان لأهل القبائل أن ينفروا جميعاً إلى المدينة، ويتركوا مواضعهم، ولكن لينفر من كل فرقة طائفة، فقوله: "فلولا نفر من كل فرقة"، "لولا" تحضيضية، والمراد به الأمر، أي "لينفر"؛ لأن "لولا" إذا دخل على الفعل كان بمعنى التحضيض مثل: "هلّا"، لأن "هلّا" كلمتان "هل"، وهو استفهام وعرض لأنك إذا قلت للرجل: هل تأكل، فكأنك عرضت ذلك عليه، و"لا" وهو جحد، فـ"هلّا" مركب من أمرين، العرض، والجحد، فإذا قلت: هلّا فعلت كذا؟ فكأنك قلت: هل فعلت، ثم قلت معه "لا"، أي ما فعلت، ففيه تنبيه على وجوب الفعل وتنبيه على أنه حصل الإخلال بهذا الواجب، وهكذا الكلام في "لولا" لأنك إذا قلت: لولا دخلت علي، ولولا أكلت عندي، فمعناه أيضاً عرض وإخبار من سرورك به، لو فعل، وهكذا الكلام في "لوما" ومنه قوله: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [الحجر: ١٧]، فـ"لولا"، و"هلّا" و"لوما" ألفاظ متقاربة، والمراد بها: الترغيب والتحضيض(٣).

(١) انظر: شرح الرضي على الكافية للرضي(٢٢٥/١)، تسهيل الفوائد لابن مالك (ص٦)، همع الهوامع للسيوطي(٢٥/١) .

(٢) انظر تفسير كلاً من: الطبري (٦٢٧/١٢)، البغوي (٢٠٦/٤)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل(٥٩٧/١٠) .

(٣) انظر: تفسير القرآن، للسمعاني (٣٦٠/٢)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٢٤٠/١٠) .

ولقد أثمر الخلاف في معنى الآية الكريمة مسألة أصولية، وهي: حجية خبر الآحاد، وقبل أن ندلف إلى المسألة نعرف بمصطلح الآحاد.

عرف الأصوليون خبر الأحاد بقولهم: ما رواه الواحد أو الجماعة، الذين لا يبلغون حد التواتر(١).

وقد اختلف الأصوليون في حجية خبر الآحاد على قولين:

المذهب الأول: ثبوت العمل بخبر الواحد، وإليه ذهب أكثر الأصوليين(٢).

المذهب الثاني: عدم ثبوت العمل بخبر الواحد، وهو منسوب إلى القاساني، وأبي بكر ابن داود(٣).

ومما استدل به أصحاب القول الأول:

هذه الآية الكريمة على معنى "لينفر" من كل فرقة طائفة، فهو يفيد الطلب والأمر والإيجاب(٤).

قال الرازي: "هذه الآية حجة قوية لمن يرى أن خبر الواحد حجة، وقد أطنبنا في تقريره، والذي نقوله هاهنا إن كل ثلاثة فرقة، وقد أوجب الله تعالى أن يخرج من كل فرقة طائفة، ثم إنه أوجب العمل بأخبارهم"(٥).

فنخلص إلى أن "لولا" هنا تحضيضية، وهي مع الماضي تفيد التوبيخ على ترك الفعل، ومع المضارع تفيد طلبه والأمر به، لكن اللوم على الترك فيما يمكن تلافيه، قد يفيد الأمر به في المستقبل أي فهلا نفر(٦).

(١) انظر: كشف الأسرار، للبخاري (٦٧٨/٢)، أصول الشاشي (ص٢٧٢)، روضة الناظر بشرحها نزهة الخاطر لابن قدامة (٢٦٠/١).

(٢) انظر: أصول الشاشي (ص٢٧٢)، شرح تنقيح الفصول للقرافي(ص٣٥٦)، العدة لابن قدامة(٨٥٩/٣).

(٣) انظر: كشف الأسرار للبزودي(٦٨٠/٢)، أحكام الفصول للباجي(ص٣٣٠)، العدة لابن قدامة(٨٦١/٣).

(٤) انظر: كشف الأسرار للبزودي(٦٨٣/٢)، المحصول للرازي (٥٠٩/٢)، دراسات وتحقيقات في أصول الفقه، د.علي الضويحي (ص٦٨).

(٥) التفسير الكبير للرازي(١٧١/٦) بتصرف .

(٦) انظر: روح المعاني للألوسي (٦٥/١١) .

المطلب الرابع: إذا وقع الفعل الماضي بعد همزة التسوية فيفيد المضي والاستقبال؛ لأن فيه رايحة الشرط[1].

فمثال إفادته المضي من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ** ﴾ [البقرة: ٦].

ومعنى الآية أن يقال: للعرب في سواء استعمالان: أحدهما: أن يأتوا بسواء على أصل وضعها من الدلالة على معنى التساوي في وصف بين متعدد، فيقع معه "سواء" ما يدل على متعدد، نحو ضمير الجمع ﴿ **فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ** ﴾ [النحل: ٧١]، ويجري إعرابه على ما يقتضيه موقعه من التركيب، وثانيها أن يقع مع همزة التسوية، وما هي إلّا همزة استفهام كثر وقوعها بعد كلمة "سواء" ومعها "أم" العاطفة التي تسمى المتصلة كقوله تعالى: ﴿ **سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا** ﴾ [إبراهيم: ٢١]، والهمزة في "أأنذرتهم" الأصل فيها الاستفهام، لكنه غير مراد، فلفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الخبر، ومثل ذلك قولك: ما أبالي أشهدت أم غبت، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام، وإن كان خبراً؛ لأن فيه التسوية التي في الاستفهام، ألا ترى أنك إذا قلت أخرج زيد أم قام؟ فقد استوى الأمران عندك في الاستفهام وعدم علم أحد بعينه، كما أنك إذا أخبرت فقلت: سواء علي أقعدت أم قمت، فقد سويت بين الأمرين عليك، فلما عمتهما التسوية جرى هذا الخبر بلفظ الاستفهام لمشاركته له في الإبهام، فكل استفهام تسوية، وإن لم يكن كل تسوية استفهاماً، وإنما دخلت ألف الاستفهام وأم التي هي للاستفهام، والكلام خبر لمعنى التسوية والتسوية التي آلتها الاستفهام وأم، تقول من ذلك: أزيد في الدار أم عمرو؟ فإنما دخلت الألف وأم لأن علمك قد استوى في زيد وعمرو، وقد علمت أن أحدهما في الدار لا محالة، ولكنك استدعيت أن يبين لك الذي علمت، ويلخص لك علمه من غيره[2].

وبعض المفسرين أجرى الآية على الاستفهام فقال: "فيكون قوله تعالى: ﴿ **سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ** ﴾ مشيراً إلى أن الناس لتعجبهم في دوام الكفار على كفرهم مع ما جاءهم من الآيات بحيث يسأل السائلون أأنذرهم النبي أم لم ينذرهم، متيقنين أنه لو أنذرهم لما ترددوا في الإيمان، فقيل: إنهم سواء عليهم، جواب تساؤل الناس عن أحد الأمرين، وبهذا انتفى جميع التكلفات التي فرضها النحاة هنا، ونبرأ مما ورد عليها من الأبحاث كون الهمزة خارجة عن معنى الاستفهام[3].

---

(١) انظر: شرح الرضي على الكافيةللرضي(٢/٢٢٥)، تسهيل الفوائدلابن مالك (ص٦)، همع الهوامع (١/١٢٤) .

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١/٣١)، جامع البيان للطبري (١/٢٦٣)، البسيط للواحدي (٢/١٠٥)، الكشاف، للزمخشري (١/٨٧)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/١٥١)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل(١/٣٠٩).

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٢٤٧) .

وقوله: "أم" هنا عاطفة وتسمى متصلة، ولكونها متصلة شرطان:

أحدهما: أن يتقدمها همزة استفهام أو تسوية لفظاً أو تقديراً.

والثاني: أن يكون ما بعدها مفرداً أو مؤولاً بمفرد كهذه الآية؛ فإن الجملة فيها بتأويل مفرد كما تقدم وجوابها أحد الشيئين أو الأشياء، ولا تجاب بـ"نعم"، ولا بـ"لا" فإن فقد الشرط سميت منقطعة ومنفصلة، وتقدر بـ"بل والهمزة"، وجوابها "نعم"، أو "لا" ولها أحكام أخر(١).

و"لم" حرف جزم معناه نفي الماضي مطلقاً خلافاً لمن خصها بالماضي المنقطع، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]، وهذا لا يتصور فيه الانقطاع، وهي من خواص صيغ المضارع إلّا أن تجعله ماضياً في المعنى، وهل قلبت اللفظ دون المعنى أو المعنى دون اللفظ؟.

قولان: أشهرهما الثاني(٢).

قال ابن القيم: "والصواب أنه لا يتعين المعنى – يعني بذكر (لم) بعد (أم)– فإن المعنى في الآية سواء عليهم الإنذار وعدمه، فلا فرق بين ذلك وبين أن يقال سواء عليهم أأنذرت أم تركت الإنذار(٣).

ومثال إفادته الاستقبال قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

هذه الآية الكريمة مثل الآية التي قبلها، اللهم إن هذه الآية من عطف الجملة الإسمية على الفعلية(٤)، وتلك من عطف الجملة الفعلية على الإسمية، فقوله سبحانه هنا: "أدعوتموهم" جملة فعلية، وقوله: "أم أنتم صامتون" جملة إسمية، فالمعنى: أدعوتموهم أم صمتم، فهنا جملتان الأولى مركبة من فعل وفاعل، والثانية من مبتدأ وخبر، ويعود معناها إلى معنى الأولى، لأن معناها صمتم".

قال الفراء: "ولم يقل: أم صمتم، وعلى هذا أكثر كلام العرب، أن يقولوا: سواء عليّ أقمت أم قعدت، ويجوز سواء عليّ أقمت أم أنت قاعد".

وأنشد الكسائي:

سواءٌ عليك النَّفرُ أم بتّ ليلةً بأهل القِبابِ من نُمَيْرِ بنِ عامر

(١) انظر: الإتقان للسيوطي(١٦/٢، ١٦٤-١٦٥)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل(٣١٠/١) .

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٣١٠/١) .

(٣) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١٨٩/٤) .

(٤) ابن عطية قال: "وفي قوله تعالى: "أدعوتموهم أم أنتم صامتون" عطف الاسم على الفعل" (١٧٨/٦)، قال أبو حيان بعد أن بين رأيه في الآية موجهاً النقد لابن عطية: "وليس من عطف الاسم على الفعل، إنما هو من عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية" (٥٦٠/٤)، وقامة علمية مثل ابن عطية لا يخفاه هذا، ويعذر له بأن هذا من التساهل في الألفاظ والتعبير .

وأنشد بعضهم: "أو أنت بائت"[١].

فقوله: "أم أنتم صامتون" جملة اسمية في موقع الفعلية، والتقدير أم صمتم؟[٢].

قال أهل المعاني[٣]: إنما قال "أم أنتم صامتون" ولم يقل: "أم صمتم"، لإفادة الماضي والحال، وذلك أن المقابلة بدعوتم قد دلت على معنى الماضي، واللفظ قد دل على معنى الحال، وإنما جاز هذا النظم؛ لأن رؤوس الآيات كانت على النون، وهذا النظم وإن كان قليلاً فقد تكلمت العرب بمثله، فالعدول إلى الإسمية من مقتضى الفصاحة، لأن الفواصل والأسجاع من أفانين الفصاحة، وفيها تظهر براعة الكلام، إذ يكون فيه إيفاء بحق الفاصلة مع السلامة من التكلف.

ولهذا قال أهل اللغة:إن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز إلّا لفائدة وحكمة، وتلك الفائدة هي أن صيغة الفعل مشعرة بالتجدد، والحدوث حالاً بعد حال، وصيغة الاسم مشعرة بالدوام والثبات والاستمرار، فإذا عرف هذا فيقال: إن هؤلاء المشركين كانوا إذا وقعوا في مهم، وفي معضلة تضرعوا إلى تلك الأصنام، وإذا لم تحدث تلك الواقعة بقوا ساكتين صامتين، فقيل لهم لا فرق بين إحداثكم دعاءهم، وبين أن تستمروا على صمتكم وسكوتكم، فهذا هو الفائدة في هذه اللفظة[٤].

وقد خالف ابن عاشور هذا الكلام فقال: "وعندي أن الجملة الاسمية لا تفيد أكثر من الثبوت المقابل للتجدد، وأما الاستمرار والدوام فهو معنى كنائي لها، يُحتاج في استفادته إلى القرينة المعينة، وهي منفية هنا، فالمعنى: سواء عليكم أدعوتموهم دعوة متجددة، أم لازمتم الصمت، وليس المعنى على الدوام"[٥].

(١) انظر: معاني القرآن (٣٠١/١)، البيت لم أقف على قائله وهو من شواهد الكسائي، كما في معاني القرآن، وجامع البيان للطبري(٦٣٥/١٠)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١٧٨/٦)، البحر المحيط لابي حيان (٥٦٠/٤) .

(٢) انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري(ص٣٩٨) .

(٣) انظر البسيط للواحدي(٩/ ٥٢٦).

(٤) انظر: البسيط للواحدي (٥٢٥/٩)، الكشاف للزمخسري(٢١٧٧)، التفسير الكبير للرازي(٤٣١/٥) .

(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٩٢/٨) .

المبحث الرابع: دلالة الفعل الماضي على الزمن الحاضر وأثره في التفسير

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ترتيب فعلين وقعا في الماضي بحيث وجد الأول في اللحظة التي وجد فيها الثاني[(١)].

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧].

فقوله سبحانه: "نجاكم" فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر، وقوله: "أعرضتم" فعل ماضٍ مبني على السكون لاتصاله بضمير الرفع المتحرك ...،

وسبقا بـ"لما" الظرفية والتي تكون بمعنى حين أو إذا، وتطلب جملتين فعلاهما ماضيان، وهي منصوبة بجوابها، وهي مضافة إلى فعلها الأول، وبعبارة أخرى: الجملة الأولى تكون في محل جر بإضافة "لما" إليها.

والمحققون من العلماء يرون أنها وسيلة للربط بين جملتين، ولذلك أطلقوا عليها "حرف وجود لوجود"، أي أنها للدلالة على شيء لوجود غيره[(٢)].

وتفسير الآية: فلما نجاكم من الضر وأوصلكم إلى البر أعرضتم عن ذكره تعالى بعد أن كنتم غير ذاكرين إلّا إياه سبحانه أو أعرضتم عن توحيده جل وعلا أو عن شكره عز وجل بتوحيده وطاعته سبحانه، أو توغلتم في التوسع في كفران النعمة على أنه من العرض مقابل الطول وجعل كناية عن ذلك، وكأنه أريد أعرضتم واستطلتم واتسعتم في الكفران إلّا أنه استغنى بذكر العرض عن ذكر الطول للزومه له.

والإعراض: الترك، أي تركتم دعاء الله، بقرينة الجمع بين مقتضى المضارع من إفادة التجدد وبين مقتضى الاستثناء من انحصار الدعاء في الكون باسمه تعالى[(٣)].

---

(١) انظر: مغني اللبيب لابن هشام (٣١٠/١) .

(٢) انظر: الجدول في إعراب القرآن لصافي (٨٤/٨)، بلاغة القرآن في الإعجاز للشيخلي (٥٥١/٥) .

(٣) انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي(٥٨٠/١)، روح المعاني للألوسي (١٤٨/١٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٢٧/١٤) .

المطلب الثاني: إذا قيد الفعل الماضي بكلمة "الآن".

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

فقوله: "الآن" اسم ظرف للزمان الحاضر مبني على الفتح في محل نصب متعلق بـ"خفف"، قيل: أصله (أوان) بمعنى زمان، ولما أريد تعيينه للزمان الحاضر لازمته لام التعريف، بمعنى العهد الحضوري، فصار مع اللام كلمة واحدة ولزمه النصب على الظرفية.

والوقت المستحضر بقوله: "الآن" هو زمن نزولها، وهو الوقت الذي علم الله عنده انتهاء الحاجة إلى ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين، بحيث صارت المصلحة في ثبات الواحد لاثنين لا أكثر، رفقاً بالمسلمين، واستبقاءً لعددهم، فمعنى قوله: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ ﴾أن التخفيف المناسب ليسر هذا الدين روعي في هذا الوقت، ولم يراع قبله؛ لمانع منع من مراعاته فَرُجّح إصلاح مجموعهم(١).

و"خفف" فعل ماض لكن لا يدل على الزمان الماضي، بدليل اقترانه بـ"الآن"، فاقترانه بـ"الآن" يدل على الزمان الحاضر على الإطلاق.

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧٥/٩)، الجدول في إعراب القرآن لصافي (٢٦١/٥).

المطلب الثالث: إذا قُيّد الفعل الماضي بـ"آنفاً" فيدل على الحال[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ ﴾ [مُحَمَّد: ١٦].

قوله: "قال" فعل ماض، جاء بعده قوله "آنفاً"، وآنف: اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد؛ لأنه لم يسمع له فعل ثلاثي بل استأنف وائتنف.

قال الزجاج: "ومعنى آنفاً من قولك استأنفت الشيء إذا ابتدأته، وروضة أنف إذا لم تُرْع بعد، أي لها أوّلٌ يُرعى"[٢].

وكأن معنى هذا أخذت أنفه أي مبدأه، وأصل الأنف الجارحة المعروفة ثم يسمى به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه، ومعنى قول الزجاج: "استأنفت الشيء إذا ابتدأته" يريد أنه مشتق من فعل مزيد، ولم يسمع له فعل مجرد، وظاهر كلامه أن اشتقاقه من الاسم الجامد وهو الأنف، أي جارحة الشم، وكأنهم عنوا به أنف البعير؛ لأن الأنف أول ما يبدو لراكبه فيأخذ بخطامه، فلوحظ في اسم الأنف معنى الوصف بالظهور.

وقيل: هو مشتق من أُنُف بضم الهمزة والنون يوصف به الكأس التي لم يشرب منها من قبل، وتوصف به الروضة التي لم تُرْع قبل، كأنهم لاحظوا فيها لازم وصف عدم الاستعمال وهو أنه جديد.

وفي قوله: "آنفاً" وجهان:

أحدهما: أنه منصوب على الحال وفي تقديره معان: المعنى الأول: ماذا قال مُؤتنفاً؟[٣].

والمعنى الثاني: مبتدئاً؛ أي ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصاله عنه؟[٤].

المعنى الثالث: ماذا قال الساعة؟[٥].

الثاني: أنه منصوب على الظرف، واختلفت عبارات المفسرين في معناه:

فقيل: معناه: ماذا قال الساعة، فهو بمعنى زمان الحال، فهو ظرف حالي كالآن.

قال به الزجاج[٦]، والزمخشري[٧]، والبغوي[٨].

قال الزجاج: "ماذا قال آنفاً، أي: ماذا قال الساعة".

---

(١) انظر: أسرار النحو لزعير (٢٠٠/٣) .

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه (١٠/٥) .

(٣) انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري (ص٧١٥) .

(٤) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١١١/٨) .

(٥) انظر: المصدر السابق.

(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه (١٠/٥) .

(٧) انظر: الكشاف (٣٢٥/٤) .

(٨) انظر: معالم التنزيل (٢٨٣/٧) .

وقال البغوي: "آنفا، يعني الآن".

وقيل: معناه الساعة الماضية القريبة منا، قال ابن عاشور: "ومعنى آنفاً: وقتاً قريباً من زمن المتكلم"(١).

وقال ابن عطية: "والمفسرون يقولون: آنفاً، معناه: الساعة الماضية القريبة منّا، وهذا تفسير بالمعنى"(٢).

إلّا أن هذا المعنى لم يعجب ابن عاشور، فقال: "وفي كلامه نظر؛ لأن أهل اللغة فسروه بوقت يقرب منا، وصيغ على زنة اسم الفاعل، وليس فيه معنى اسم الفاعل، فهذا اسم غريب التصريف، ولا يحفظ شيء من شعر العرب وقع فيه هذا اللفظ"(٣).

وجزم ابن عاشور أن لفظة "آنفاً" لم ترد إلّا منصوبة على الظرفية.

وخالف ذلك أبو حيان، فقال: "والصحيح أنه ليس بظرف، ولا نعلم أحداً من النحاة عدّه من الظروف"(٤).

وما ذهب إليه أبو حيان مخالف لما عليه كثير من أهل اللغة والتفسير، الذين أعربوا قوله: "آنفاً" ظرفاً.

كالواحدي(٥)، والزمخشري(٦)، وابن عطية(٧)، والبيضاوي(٨)، والنسفي(٩)، وأبي السعود(١٠).

وقد ذكر المفسرون في وجه سؤال المنافقين ما يلي:

الأول: أنهم سألوا استهزاءً منهم، وإعلاماً أنهم لم يستمعوا إلى كلامه، ولم يلتفتوا إلى ما قال، فهم بذلك يقولون استخفافاً؛ أي: ما معنى ما قال؟ ما نفعه؟ ما قدره؟.

وقال بهذا القول الزجاج(١١)، والسمعاني(١٢)، والبغوي(١٣)، وغيرهم(١٤).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٨٤/٢٦) .

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٣٩٩/١٣).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٨٤/٢٦) .

(٤) انظر: البحر المحيط (١١١/٨).

(٥) انظر: البسيط (٢٣٨/٢٠).

(٦) انظر: الكشاف(٣٢٥/٤).

(٧) انظر: المحرر الوجيز(٣٩٨/١٣).

(٨) انظر: أنوار التنزيل(٩٨٧/٢).

(٩) انظر: مدارك التنزيل (٤٢٤/٤).

(١٠) انظر: إرشاد العقل السليم (٨٨/٦).

(١١) انظر: معاني القرآن وإعرابه (١٠/٥) .

(١٢) انظر: تفسير القرآن(١٧٥/٥) .

(١٣) انظر: معالم التنزيل(٢٨٣/٧) .

(١٤) كالزمخشري في الكشاف(٣٢٥/٤)، والقرطبي في أحكام القرآن(٢٦٢/١٩)، والألوسي (٢٨٧/٢٥) .

الثاني: أنهم سمعوا كلامه ولم يفقهوه ولم يعقلوه، فمرادهم حقيقة الاستعلام، ويدل عليه باقي الآية، وقال به ابن كثير(١)، وجوزه الواحدي(٢)، والرسعني(٣)، وابن الجوزي(٤).

الثالث: أنهم يقولون ذلك جهلاً ونسياناً؛ لأنه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أمر دنياه، وفي كفره فكان القول يَمُرُّ صفحاً، فإذا خرج قال: ماذا قال آنفاً.

وقد جوز هذا المعنى ابن عطية(٥)، وابن جزي(٦).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٦٥٦) .

(٢) انظر: البسيط (٢/٢٣٩) .

(٣) انظر: رموز الكنوز (٧/٢٦٠) .

(٤) انظر: زاد المسير (٧/٤٠٢) .

(٥) انظر: المحرر الوجيز (١٣/٣٩٨) .

(٦) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٢٨٢) .

المبحث الخامس: دلالة الفعل الماضي على الاستمرار وأثره في التفسير

والمقصود بهذا المبحث "كان" حيث إنها تفيد المضي لكنها أحياناً تدل على الاستمرار، وذلك إذا كان الخبر عن الله سبحانه وتعالى مثال ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

ففي هذه الحالة فإنه يدل على استمرار مضمون الخبر في جميع زمن الماضي، وذلك أن الاستمرار مستفاد من قرينة وجوب كون الله سبحانه لم يزل متصفاً بهذه الصفات لا من لفظ (كان)، ولهذا قال بعضهم: "تختص (كان) بمرادفة لم يزل كثيراً، أي أنها تأتي دالة على الدوام"[(١)].

فالخبر عن الله تعالى بهذه الألفاظ كالخبر بالحال والاستقبال، لأنه تعالى منزه عن الدخول تحت الزمان، فهو سبحانه لم يزل موصوفاً بهذه الصفات، فالمعنى على الديمومة.

قال العثيمين: من الفوائد اللغوية: أنه (كان) قد تسلب دلالتها على الزمان؛ لأنها لو دلت على الزمان في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[النساء: ١١]، لكان الرب عز وجل الآن ليس عليماً ولا حكيماً، لكنها أحياناً تسلب دلالتها على الزمان ويكون مدلولها مجرد الحدث، أو مجرد الوصف؛ إذا كان صفة، إذاً (كان) في الأصل تدل على زمن مضى، لكنها أحياناً تسلب دلالتها على الزمان فتكون لمجرد الوصف بخبرها[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان للطبري (٣٥١/٦)، شرح الرضي على الكافية للرضي(٢٧٢/٢)، البحر المحيط لأبي حيان(١٥٩/٣)، همع الهوامع للسيوطي(١٢٠/١)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل(٢٢٢/٦)، روح المعاني (٥٩٥/٣) .

(٢) بتصرف من تفسير القرآن الكريم، سورة النساء (٩١/١).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وبعد البحث والاستقصاء لدلالة الفعل الماضي في القرآن الكريم وأثره في التفسير تبين لي ما يلي:

أولاً: النتائج:

١ – أن الفعل هو اقتران حدث بزمان.

٢ – أن الفعل الماضي هو اقتران حدث بزمان قبل زمانك.

٣ – أن الفعل الماضي إذا وقع بعد أداة الشرط (إن) فإنه يفيد المستقبل.

٤ – أن الفعل الماضي إذا عطف على ما علم استقباله أفاد المستقبل.

٥ – أن الفعل الماضي إذا وقع منفياً بـ"لا" أو "إن" بعد القسم فيفيد المستقبل.

٦ – إذا كان القصد من الإتيان بالفعل الماضي في سياق الكلام للوعد أفاد الاستقبال.

٧ – أن الفعل الماضي يدل أحياناً على المضي والاستقبال احتمالاً بعد "كلما" و"حيث"، وبعد حروف التحضيض، وبعد همزة التسوية.

٨ – إذا وقعا فعلان ماضيان بحيث وجد الأول في اللحظة التي وجد فيها الثاني فإنه يفيد الزمن الحاضر.

٩ – إذا قيد الفعل الماضي بـ"الآن" و"آنفاً" فإنه يدل على الحاضر.

١٠ – أن الخبر إذا كان عن الله سبحانه وتعالى وسبقه فعل "كان" فإنه يدل على الاستمرار.

ثانياً: التوصيات:

أوصي الباحثين بتتبع دلالات صيغ الأفعال في القرآن الكريم ودراستها دراسة مستقلة، وبيان أثرها في التفسير، فإن هذا مما يثري الدراسات الإسلامية عامة، والدراسات القرآنية على وجه الخصوص.

وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس

أولاً: ثبت المصادر والمراجع

١. أحكام القرآن، لابن العربي مُحَمَّد بن عبدالله ، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، طبعة دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
٢. أحكام القرآن، الجصاص ،أحمد بن علي ، طبعة دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ.
٣. الاختيار لتعليل المختار، الموصلي، عبدالله بن محمود ، تحقيق: عبداللطيف مُحَمَّد عبدالرحمن، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة.
٤. أسباب النزول والقصص الفرقانية، للعراقي مُحَمَّد بن أسعد ، تحقيق: الدكتور عصام غانم، طبعة مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
٥. أسباب النزول، الواحدي ، علي بن أحمد ، تخريج وتدقيق: عصام الحميد، طبعة دار الذخائر، ١٤٢٠هـ.
٦. الاستذكار،لابن عبدالبر، يوسف بن عبدالبر القرطبي، تحقيق: سالم مُحَمَّد عطا وآخرون، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٧. أسرار النحو في أساليب القرآن، للدكتور مُحَمَّد يسري زعيرط، دار الكتاب الجامعي، ١٤١٨هـ.
٨. الأشباه والنظائر في النحو،للسيوطي ، جلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور عبدالعال سالم مكرم، طبعة دار عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.
٩. أصول الشاشي، الشاشي ،أحمد بن مُحَمَّد الشاشي، طبعة دار الكتاب العربي.
١٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، للبيضاوي ،عبدالله بن عمر البيضاوي، طبعة دار صادر، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١١. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان ، يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي مُحَمَّد جميل، دار النشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
١٢. بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، طبعة دار الكتاب العربي.
١٣. البسيط في شرح جمل الزجاجي، لابن أبي الربيع الإشبيلي، تحقيق ودراسة: د.عياد الثبيتي، طبعة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
١٤. بلاغة القرآن في الإعجاز إعراباً وتفسيراً بإيجاز، إعداد: بهجت الشيخلي، طبعة مكتبة دنديس، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٥. تأويل مشكل القرآن،لابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية.
١٦. التفسير البسيط،الواحدي ،علي بن أحمد الواحدي، مجموعة رسائل بتحقيق مجموعة من طلاب جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية.
١٧. التفسير الكبير ، للفخر الرازي،مُحَمَّد بن عمر دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
١٨. تيسير البيان لأحكام القرآن، للخطيب الموزي ، مُحَمَّد بن علي ، تحقيق: عبدالمعين الحرش، طبعة دار النوادر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
١٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ،مُحَمَّد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، دار النشر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٢٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن،الطبري ، مُحَمَّد بن جرير الطبري، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٢١. الجامع لشعب الإيمان، للبيهقي ،أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: الدكتور عبدالعلي حامد، طبعة مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٢٢. الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، لمحمود صافي، طبعة دار الرشيد، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ.
٢٣. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير،الدسوقي،مُحَمَّد بن عرفة الدسوقي، تحقيق: مُحَمَّد عليش، طبعة دار الفكر.
٢٤. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، للماوردي ، علي بن مُحَمَّد الماوردي، تحقيق: مُحَمَّد معوض وآخرون، طبعة دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.
٢٥. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون،السمين الحلبي ،أحمد بن يوسف بن عبدالدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق/ د.أحمد مُحَمَّد الخراط، دار القلم.
٢٦. الرسالة،للشافعي ، مُحَمَّد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، طبعة مكتبة الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ.
٢٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،الألوسي ، محمود الآلوسي، تحقيق: مُحَمَّد أحمد الأمد، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
٢٨. روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ابن قدامة، عبدالله بن أحمد بن قدامة، طبعة مؤسسة الريان، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

٢٩. زاد المسير في علم التفسير،ابن الجوزي ،جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
٣٠. شرح تنقيح الفصول،القرافي، أحمد بن إدريس الشهير بالقرافي، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، طبعة شركة الطباعة المتحدة، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.
٣١. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري، بإشراف ومراجعة: صالح آل الشيخ، طبعة دار السلام، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
٣٢. العدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى،مُحَمَّدبن الحسين الفراء، تحقيق: د.أحمد بن علي المباركي، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.
٣٣. الفعل في نحو ابن هشام، للدكتور عصام نور الدين، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٣٤. فيوض العلوم على تفسير آيات الأحكام،الشوكاني ، مُحَمَّد بن علي الشوكاني، طبعة دار الراعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٣٥. الكشاف ،الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
٣٦. كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، لعلاء الدين البخاري الحنفي،عبدالعزيز بن أحمد ، طبعة دار الكتاب الإسلامي.
٣٧. لباب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي،عبدالرحمن بن الكمال أبي بكر، مطبعة مصطفى البابي، الطبعة الرابعة، ١٩٧٨م.
٣٨. اللباب في علوم الكتاب ، لابن عادل ،عمر بن علي بن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٣٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،لابن عطية، عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالله الأنصاري وآخرون، وزارة الشؤون الإسلامية بدولة قطر.
٤٠. المحصول ،الرازي، مُحَمَّد بن عمر الرازي، تحقيق: الدكتور طه جابر فياض، مطبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.
٤١. المرجع الأساسي في النحو العربي، لسعيد بن عبد ربه الزهراني، طبعة دار الصيمعي، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
٤٢. معالم التنزيل،البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: مُحَمَّد النمر وآخرون، طبعة دار طيبة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.

٤٣. معاني القرآن وإعرابه،الزجاج، إبراهيم بن إسحاق الزجاج، تحقيق: د/عبدالجليل شلبي، دار الحديث، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٤٤. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب،لابن هشام ،عبدالله بن هشام الأنصاري، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي.
٤٥. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب،لابن هشام ، عبدالله بن يوسف بن أحمد بن هشام، تحقيق: الدكتور مازن المبارك وآخرون، طبعة دار الفكر، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.
٤٦. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج،الشربيني، مُحَمَّد الخطيب الشربيني، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٤٧. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل،ابن قدامة، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٤٨. المفصل في علم اللغة،الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: الدكتور مُحَمَّد عز الدين السعيدي، طبعة دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٤٩. المقتضب،المبرد، مُحَمَّد بن يزيد الأزدي ، تحقيق: مُحَمَّد عبدالخالق عضيمة، طبعة عالم الكتب.
٥٠. نيل المرام من تفسير آيات الأحكام،القنوجي، صديق حسن القنوجي، تحقيق: يوسف البكري، طبعة رمادي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٥١. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين السيوطي،عبدالرحمن بن الكمال أبي بكر ، تحقيق: عبدالسلام مُحَمَّد هارون، والدكتور عبدالعال سالم مكرم، طبعة دار البحوث العلمية، ١٣٩٤هـ.

ثانياً: فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٣
التمهيد.	٧
المبحث الأول: دلالة الفعل الماضي على الزمن الماضي وأثره في التفسير.	٨
المبحث الثاني: دلالة الفعل الماضي على الزمن المستقبل وأثره في التفسير.	٩
المطلب الأول: إذا وقع الفعل الماضي بعد أداة الشرط (إن) وما يتضمن معناها.	٩
المطلب الثاني: إذا كان الفعل الماضي وقع بالإخبار عن الأمور المستقبلية مع قصد القطع بوقوعها.	١٥
المطلب الثالث: إذا وقع الفعل الماضي بعد القسم منفياً بـ"لا" أو "إن".	١٧
المطلب الرابع: إذا كان القصد من الإتيان بالفعل الماضي في سياق الكلام للوعد.	١٨
المطلب الخامس: دخول "ما" النائبة عن الظرف المضاف على الفعل الماضي.	٢٢
المبحث الثالث: دلالة الفعل الماضي على المضي والاستقبال احتمالاً، وأثره في التفسير.	٢٤
المطلب الأول: إذا وقع الفعل الماضي بعد "كلما".	٢٤
المطلب الثاني: إذا وقع الفعل الماضي بعد "حيث".	٢٥
المطلب الثالث: إذا وقع الفعل الماضي بعد أحد حروف التحضيض.	٢٦
المطلب الرابع: إذا وقع الفعل الماضي بعد همزة التسوية.	٢٨
المبحث الرابع: دلالة الفعل الماضي على الزمن الحاضر وأثره في التفسير.	٣١
المطلب الأول: ترتيب فعلين وقعا في الماضي بحيث وجد الأول في اللحظة التي وجد فيها الثاني.	٣١
المطلب الثاني: إذا قيد الفعل الماضي بكلمة "الآن".	٣٢
المطلب الثالث: إذا قيد الفعل الماضي بكلمة "آنفاً".	٣٣
المبحث الخامس: دلالة الفعل الماضي على الاستمرار والدوام، وأثره في التفسير.	٣٦

الخاتمة.	٣٧
الفهارس.	٣٨
أولاً: ثبت المصادر والمراجع.	٣٨
ثانياً: فهرس الموضوعات.	٤٢